قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧] فهم قد عملوا السوء وارتكبوا الذنوب دون قصد منهم أو تدبير مسبق بل غلبت عليهم أنفسهم في لحظة ضعف وخدعهم الشيطان ثم سرعان ما أفاقوا من غفلتهم ولذلك قال بعدها: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧] فأقالهم الله من عثرتهم وقَبِل توبتهم.

* * *

الفرق بين الفعل والعمل

وانظر أيضًا إلى الدقة المتناهية في قوله: ﴿فَعَلْتُمْ﴾ في الآية الكريمة: ﴿فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦] فقال: ﴿فَعَلْتُمْ﴾ ولم يقل: (عملتم). فالآية تبين لنا أن عدم تبين الأمور سيفضي بصاحبه إلى الوقوع في المحظور، وأن التهور والعجلة والاندفاع سيؤدي إلى ما لا يحمد عقباه وإلى كثير من الأضرار التي تلحق بالأبرياء وأنه سيكون الندم والآهات ولكن بعد فوات الأوان وما ذلك إلا بسبب التعجل وعدم الأناة، ولذلك فكلمة (فعلتم) هنا أنسب وأدق من كلمة (عملتم). فهناك فرق كبير لاستعمال القرآن لكلمة«فعل» و«عمل».

فالأصل في العمل الدأب والمثابرة مما يدل على اتصال الحدث وامتداد الزمن نقول: (أعمل ذهنه) إذا أطال التفكير والتأمل.

أما «الفعل»: فيدل على ظهور الأثر وسرعة الحدث ومنه: «الانفعال»: وهو شدة التأثر وسرعة الاستجابة. فالفعل وحدة في العمل فهو أخص منه؛ لأن العمل امتداد وتراكمات وينطوي على وحدات من الأفعال ومن ثم سمي الولاة «عمالاً» نقول: عامل البصرة وعامل الخراج لأن عملهم تدبير وامتداد في الزمن ولذلك قال في القائمين على تحصيل الصدقات في سورة التوبة: ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: ٦٠] ولم

يقل: (الفاعلين عليها)؛ لأنه أراد السعاة القائمين على تحصيلها وتدبير شئونها وهو عمل ينطوي على دأب ومثابرة وتكرار يمتد مع الزمن الطويل.

بينما نقول: «فاعل» لمن يقوم بالحفر والحمل والهدم والجمع «فَعَلَة» لما في ذلك من وحدة الفعل والزمن وظهور الأثر في التو والحال. وكذلك قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤] ولم يقل: (عاملون)؛ لأنه أراد السرعة في أدائها دون تباطؤ لسد حاجة الفقراء والمساكين.

وقال عز وجل: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]، فقال في هذه الآية وفي غيرها من الآيات: «عملوا الصالحات»؛ لأن المعتبر في الصالحات الاتصال والاستمرار والامتداد، بينما قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، لأنه أراد سرعة الاستجابة والسبق في الخير كما قال عز وجل: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: ٤٨] وقال: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

وانظر إلى قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٦، ٧] وقوله أيضًا: ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٨] وقوله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وذلك لأن هلاك المجرمين والكفار أو طي السماء كانا على وجه السرعة ولا ملحظ فيه لامتداد الزمان. وسبحان القائل: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] فكل لفظ في موضعه وهذا من إعجاز القرآن.

* * *

من أسرار ترتيب نداءات السورة

وإذا نظرنا إلى النداءات الخمسة للمؤمنين في سورة «الحجرات» لرأينا أن ترتيبها قد جاء في السورة على نحو غير مألوف، فالنداءان الأول والثاني جاءا في حق الله ورسوله ﷺ وما ينبغي نحوهما من الأدب والتعظيم وتمشيًا أيضًا مع القضية الأساسية في السورة وهو الوقوف عند الحدود الشرعية وعدم تعديها تأكيدًا لقوله عز وجل في أول السورة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...** ﴾ [الحجرات: ١] ولقوله في الآية الثانية: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ...** ﴾ [الحجرات: ٢].

وبعد ذلك يأتي النداء الثالث في شأن التعامل مع نبأ الفاسق كما رأينا في آيتنا هذه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا...** ﴾ [الحجرات:٦]. ثم كان النداءان الأخيران في السورة لبيان الآداب التي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون في تعاملاتهم فيما بينهم وهما قوله عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ...** ﴾ [الحجرات: ١١]. وقوله في النداء الخامس والأخير: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ...** ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقد يتعجب البعض ويتساءل كيف يقدم النداء الخاص بالفاسق على النداء الخاص بالمؤمنين؟! ولكن إذا علمنا خطورة قبول نبأ الفاسق على المجتمع المسلم لزال هذا العجب فأهل الفسق بمثابة معاول هدم في بنيان المجتمع. ولذلك كان تقديم هذا الأمر لما له من الآثار السيئة التي تترتب عليه، وكما هو معلوم فإن درء المفاسد مقدم على جانب المنافع، ولذلك وبعد ذكر خبر الفاسق جاء ذكر الاقتتال الذي يقع بين المؤمنين وذلك في قوله عز وجل: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا** ﴾ [الحجرات: ٩] وذلك لبيان أن هذا الاقتتال إنما هو نتيجة طبيعية لسماع نبأ الفاسقين.

سر آخر وعجيب لهذا الترتيب

وهناك أمر آخر وسر عجيب لهذا الترتيب في نداءات الله للمؤمنين في هذه السورة وهو خاص بما ينبغي للرسول ﷺ من الأدب والتوقير. فهذه الآية فيها عتاب للصحابة - رضي الله عنهم - ولكنه ليس بعتاب واضح أو جلي بل هو عتاب من طرف خفي، فالنداءان السابقان كانا في حق الأدب مع رسول الله ﷺ وأنه لا ينبغي التقدم في حضرته برأي أو فعل أو رفع للصوت أو جهر بالقول كما يجهر بعضهم لبعض.

ثم بعد هذا العتاب جاء الثناء على من يغض صوته عند رسول الله ﷺ، وذكر أن هؤلاء هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، وقد بينا عند تفسير هذه الآيات أن هذا الامتحان أو تلك المحنة إنما كانت عندما حدث منهم التقدم الذي نُهوا عنه، والذي افتتحت به السورة وجاء في بدايتها وذلك لخطورة أثره.

وذكرنا أيضًا أن هذا التقدم وتلك المحنة أو هذا الابتلاء إنما كان في «صلح الحديبية» حيث عقد الرسول ﷺ هذا الصلح مع قريش مع ما كان يبدو في بنوده من ظلم وإجحاف في حق المسلمين ولذا عارضه الصحابة وأظهروا عدم رضاهم عنه وعندما أمرهم الرسول ﷺ بالتحلل من الإحرام وذلك بحلق رءوسهم ونحر هديهم لم يمتثلوا الأمر وترددوا في قبول ما أمرهم به، وأخذ عمر - رضي الله عنه - يجادله في بنود الصلح ويسأله عن الحجة أو البينة على ما أمضاه من أمر الصلح مع قريش ورسول الله ﷺ يقول له: «**إني عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعني**».

فالرسول ﷺ يحاول بهذا الكلام أن يلفت نظر عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة إلى هذه الحقيقة الكبرى التي ينبغي الرجوع إليها عند الاختلاف وفي

المواقف الحرجة. فالرسول ﷺ لم يتصرف في الصلح من تلقاء نفسه فهو لا ينطق عن الهوىٰ بل هو وحي يوحىٰ وكان ينبغي من عمر بل ومن كل الصحابة أن يكون منهم التسليم والرضا التام دون مناقشة أو جدال أو مطالبة بالبينة إو البرهان فقد آمنوا به رسولاً من عند الله يأتيه وحي السماء فما كان ينبغي لهم بعد ذلك أن يكون منهم أدنىٰ شك أو ارتياب ولذلك كان عمر يُكفِّر عما صنع في هذا اليوم وذلك بالصدقة والصيام وعتق الرقاب.

ولذلك أيضًا ذكر الله ما صنعه الأعراب وأنهم لم يرعوا حرمة رسول الله ﷺ إذ كان منهم رفع الصوت من وراء الحجرات وكان منهم البغي والتجاوز والعدوان ولم يلتزموا بالأدب الواجب في حق رسول الله ﷺ ولذلك أدبهم ربهم ووصفهم بأن« أكثرهم لا يعقلون» إذ لم يتصرفوا وفق ما يقتضيه العقل أو حتىٰ حسبما تمليه عليهم فضيلة الصبر وهذا ما جاء في قوله عز وجل: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ [الحجرات: ٤-٥].

ثم أوضح بعد ذلك - في هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها - أن التبين إنما يكون في نبأ الفاسق فهو في هذه الحالة أمر واجب فالفاسق غير مأمون الجانب ولا ينبغي أن يوثق في كلامه ولا أن يقبل قوله علىٰ علاته إلا بعد التبين والتثبت وإلا حدث لهم ما لا يحمد عقباه ويكون الندم بعد فوات الأوان.

هذا في شأن الفاسق أنه ينبغي التبين والتوقف والتساؤل ولكنه بالنسبة للرسول ﷺ ينبغي ألا يعصىٰ أمره بل يقبل قوله ويقتدىٰ بفعله دون نقاش أو تردد أو تبين وإلا فهل هم في حاجة إلىٰ تبين أمره؟ أم هل هم يشكون في صدقه؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله؟ أم هل يرتابون أن العاقبة ليست للمؤمنين المخلصين من أهل التقوىٰ والصدق واليقين؟

فالفاسق يتوقف في قبول خبره ويتهم في قوله أما الرسول ﷺ فيقبل خبره ويطاع

أمره دون تردد أو طلب بينة أو دليل، فلا ينبغي عكس الأمور وقلب الأوضاع. ولذلك جيء بهذه الآية السادسة من سورة «الحجرات» بعد الآيات التي سبقتها والمتعلقة بالأدب مع رسول الله ﷺ، فالكلام إذن لايزال في إطار تعظيم شأنه ورفعة قدره مع أن الترتيب حسب الظاهر قد يقتضي خلاف ذلك، فالترتيب قد يخالف الأعراف الظاهرة والقواعد لكن الأدب مع رسول الله ﷺ ينبغي أن يكون مقدمًا وأن يعض عليه بالنواجذ.

كما أنه بعد هذه الآية السادسة جاءت الآية التي بعدها مبدوءة بقوله عز وجل: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧]. ففعل الأمر الوارد فيها (واعلموا) إنما هو معطوف على فعل الأمر الوارد في الآية السادسة قبلها وهو (فتبينوا) أي فتبينوا . . . . كذا . . . . ، واعلموا . . . . كذا .

فالكلام ممتد وموصول والعتاب مستمر وقائم فقد كان ينبغي لهم أن يشكروا ربهم على نعمة وجود الرسول ﷺ بين أظهرهم وألا يغفلوا عنها طرفة عين وأن يقدروها حق قدرها وذلك بسماع قوله واقتفاء أثره وعدم عصيان أمره وألا يحملوه على موافقتهم أوالنزول على رأيهم كما حدث منهم في «صلح الحديبية» لأنه لو فعل ذلك وأطاعهم فيما ذهبوا إليه لأصابهم الضرر ولحل بهم العنت والمشقة كما سنبينه في تفسير الآية التالية إن شاء الله.

ثم رتب على عدم اتباعهم لنهجه وعدم استماعهم لقوله ـ الاقتتال بين المؤمنين ـ والوارد في الآية التاسعة من سورتنا هذه ـ وذلك بسبب تنكبهم السير على صراطه المستقيم. ثم بعد أن فرغ من توفية هذه المعاني العظيمة حقها وتأكيد حرمة الرسول ﷺ في النفوس ولزوم طاعته والعمل بشريعته جاء بعد ذلك النداءان الأخيران في السورة والخاصَّان بخطاب المؤمنين وقد اشتمل هذان النداءان على ستة أمور منهيٍّ عنها وينبغي تركها واتقاؤها حتى يسعدوا في دنياهم ويكونوا من المكرمين عند لقاء الله يوم القيامة.

OBEIKAN.COM

بنيان مرصوص

ومما يدل أيضًا على أن هذه الآيات ـ قبل النداءين الأخيرين في السورة ـ تخص الرسول ﷺ وتبين ما ينبغي أن يكون له من التوقير والإجلال، ما يدل على ذلك أنك تشعر أن هذه الآيات صروح شامخة ولبنات متلاحمة يأخذ بعضها بعناق بعض بحيث لو أنك قرأت حتى بلغت الآية التاسعة من هذه السورة الكريمة لشعرت أنك تقرأ آية واحدة وليس آيات عديدة فالمعاني لا تتوقف بل تتدفق عبر هذه الآيات ماءً نميرًا ينساب فراتًا سلسبيلاً .

ولرأيت أيضًا أن هذه الآيات التسعة الأولى من السورة والخاصة بالرسول ﷺ يشير عددها إلى الحجرات التسعة الشريفة وأنها تمثل كيانًا واحدًا وبنيانًا متماسكًا لا ينبغي الاعتداء على حماه أو انتهاك تلك الحرمات أو الفصل بين تلكم الحجرات التي كما بينا من قبل أنها رمز وتجسيد لهذا الدين وما فيه من أحكام وآداب تستقيم بها الحياة ولو أخذ الناس بها لسعدوا في كل مكان وزمان .

ومما يدل أيضًا أن هذه الآية خاصة بالرسول ﷺ وليست فقط بشأن الفاسق كما يبدو، وأن هذه الآية موصولة بما قبلها من الآيات ـ أن سبب نزول هذه الآية كما أوضحنا من قبل كان بشأن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي ـ رضي الله عنه ـ والذي أمره الرسول ﷺ بجمع صدقات قومه «بني المصطلق»، ثم أرسل إليه الوليد بن عقبة بن أبي معيط ليأخذها منه وقد تزوج الرسول ﷺ من ابنة الحارث وهي السيدة «جويرية المصطلقية» ـ رضي الله عنها ـ أم المؤمنين والتي كانت لها حجرة من تلك الحجرات التسعة الشريفة .

وانظر إلى حسن المناسبة بين نزول هذه الآية وبين المعنى العام الذي تهدف إليه السورة الكريمة ولذلك أيضًا ذكر لفظ «الحجرات» مباشرة قبل هذه الآية السادسة التي

نحن بصددها والتي تدور تلك المعاني في فلكها. فكل آية في السياق الكريم تسلمنا إلى الآية التي بعدها برفق ولين، حتى لكأنك تشعر أن هذه الآيات إنما هي بمثابة نسيج واحد لا يمكن تجزئته أو تبعيضه بل هي كبقرة نبي الله موسى مسلمة لا شية فيها.

وبعد تلك الآيات التسعة الأولى والتي تتعلق بالأدب مع رسول الله ﷺ تأتي الآية العاشرة من السورة وهي قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]. فهي تشير إلى تلك الأخوة التي عقدها الرسول ﷺ بين المؤمنين والتي باركها رب العالمين والتي بموجبها ومقتضاها ينبغي إصلاح ما يطرأ عليها من الخلل أو ما يعتريها من الفساد للمحافظة على عُراها من الانفصام وإنما ذلك باتقاء بعض الأمور التي تنال من هذه الأخوة الإيمانية والتي جاء ذكر هذه الأمور (المحظورات) في الآيتين بعدها واللتان جاء فيهما النداءان الأخيران والخاصان بالمؤمنين. ولذلك ختمت هذه الآية العاشرة بالأمر بتقوى الله عز وجل تمهيداً لتلك النواهي التي ينبغي اتقاؤها والتي سيأتي ذكرها بعد قليل وحتى تتوق نفوس المؤمنين لمعرفتها فإذا تليت عليهم تمسكوا بأهدابها وعملوا بآدابها وامتثلوا النهي الوارد بها.

* * *

دليل من السياق الكريم

كما أنك لو نظرت إلى هذه الآية السادسة وهي قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦] فقوله فيها: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ إنما لبيان العلة أو الحكمة في أن طلب منهم التبين في أمر الفاسق وعدم التسرع أو العجلة في قبول خبره وهذه العلة هي خشية ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾.

وهذا السياق الحكيم يشبه تمامًا السياق الذي ورد في الآية الثانية من السورة الكريمة وهو قوله عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ** ﴾ [الحجرات: ٢] فقوله أيضًا: ﴿ **أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ** ﴾ لبيان العلة والحكمة في نهيهم عن رفع صوتهم فوق صوته ﷺ وأن يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض، وهذه العلة أيضًا هي خشية: ﴿ **أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ** ﴾

فهناك رباط واحد يربط بين الآيتين ويجمع بينهما، فالأسلوب المستخدم في الآيتين يشبه بعضه بعضًا فكلاهما استعمل فيه المصدر المؤول من «أن والفعل» ففي الآية الثانية من السورة قال: ﴿ **أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ** ﴾ وفي الآية السادسة والتي هي امتداد للآيات السابقة قال: ﴿ **أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ...** ﴾ والتقدير في الآيتين: «لئلا تحبط أعمالكم» و«لئلا تصيبوا قومًا بجهالة» «خشية» حبوط أعمالكم أو «خشية» إصابة قوم بجهالة أي على تقدير حذف المضاف.

كما أنه في الآية الثانية قال: ﴿ **وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ** ﴾ وهو يقابل قوله في الآية السادسة ﴿ **بِجَهَالَةٍ** ﴾ أي: وأنتم تجهلون ولا تعلمون حالهم. فكل من حبوط الأعمال وإصابة القوم بالأضرار إنما يحدثان بدون علم أو شعور أو قصد وهذا هو وجه الخطورة في الأمر كما بينا من قبل عند تفسير الآية الثانية، فالآيتان الثانية والسادسة إذن إنما هما لحمة يشد بعضها بعضًا ويخدمان نفس الغرض ويحققان نفس الغاية التي من أجلها أنزلت هذه السورة الكريمة.

وكما قلنا من قبل إن ظاهر هذه الآية إنما هو في عدم التعجل في قبول نبأ الفاسق وأنه ينبغي التوقف حتى يتبين لنا صدقه من كذبه أما حقيقتها فهي عتاب للصحابة رضي الله عنهم في ترددهم في امتثال أمر الرسول ﷺ حينما أمرهم بالتحلل من إحرامهم وذلك في صلح الحديبية.

وكذلك قوله في الآية السابقة ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ فهو وإن كان نزل في عتاب الأعراب الذين تجاوزوا كل الحدود والأعراف والآداب وضاقوا ذرعًا حينما رأوا حجراته الشريفة، فإنه أيضًا عتاب للصحابة رضوان اللَّه عليهم أنه كان ينبغي عليهم أن يصبروا ولا يتعجلوا، وأن ينزلوا على حكمه ﷺ ولو خالف ذلك رأيهم أو جاء على غير ما تهوى نفوسهم، فالخير كل الخير في اتباع أمره والتزام شرعه، فهو لا ينطق عن الهوى بل هو وحي يوحى.

فالفاسق الكذوب يتوقف في خبره، أما الصادق المصدوق ﷺ فيقبل أمره والفاسق المخادع ينبغي أن نتريث في خبره ونتلقاه بالحذر والاحتياط، وأما رسول الله ﷺ فينبغي أن يطاع أمره في التو والحال ودون تردد أوجدال، كما بينا ذلك منذ قليل عند الكلام عن العلاقة بين هذه الآية والتي قبلها، وعن الحكمة والسر في مجيء ترتيب نداءات الله للمؤمنين في هذه السورة على هذا النسق الغريب.

فالأعراب قاموا بمناداة الرسول ﷺ رغم وجود الحجرات التي كان ينبغي أن تكون رؤيتهم لها رادعًا لهم يمنعهم من رفع أصواتهم بالمناداة عليه وإزعاجه من وراء الحجرات. هذا بخلاف لو أن شخصًا قد ترك حجرته أو خرج من بيته وجلس في العراء، أي: ليس في مكان مخصوص بل في مكان عام ومكشوف، فإنه قد دلَّ بفعله هذا أنه لا حرج على الناس إذا ما نادوه أو تكلموا إليه ولكن هذا التصرف من الأعراب رغم وجود الحجرات إنما كان بمثابة عدم الاعتراف بوجود هذه الحجرات التي قلنا إنها رمز باق لهذا الدين، فوجودها ضرورة لحفظ الحقوق واحترام الحدود وانتظام الأمور.

وبالمثل فإن مخالفة الصحابة لرسول اللَّه ﷺ في صلح الحديبية وعدم امتثالهم لأمره إنما كان أيضًا بمثابة تصرف من لا يعلم بوجوده ﷺ بين أظهرهم. إذ أنه لا يتوقع أنهم يعلمون بوجوده بينهم ثم يخالفون أمره، بينما هو أيضًا - كما ذكرنا - كالحجرات رمز خالد لهذا الدين، وطاعته والالتزام بسنته أمان لأمته من الخسف

والعذاب، وعاصم لها يحول دون الكفر والارتداد كما في قوله عزَّ وجلَّ ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ** ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وكقوله أيضًا: ﴿ **وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ** ﴾ [آل عمران: ١٠١].

ووجه الشبه بين الأعراب والصحابة أن الأعراب الذين نادوه من وراء الحجرات كأنهم لم يروها ولم يعترفوا بوجودها ولم يقروا بحرمتها، وكذلك الصحابة الذين خالفوا أمر رسول اللَّه ﷺ كأنهم لم يروه أو لم يفطنوا إلى وجوده بينهم.

ولذلك بعد أن عاب اللَّه على الأعراب تعديهم على حرمة الحجرات أمرنا بالتبين في النبأ الذي يأتي من جهة الفساق وذلك في قوله عزَّ وجلَّ ﴿ **فَتَبَيَّنُوا** ﴾ وعطف عليه الأمر الوارد في قوله عزَّ وجلَّ ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ** ﴾ ثم قال بعدها: ﴿ **لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ** ﴾ وجاء بالفعل في صيغة المضارع ﴿ **لَوْ يُطِيعُكُمْ** ﴾ وليس بصيغة الماضي (لو أطاعكم) ليبين لنا أن الرسول ﷺ إنما هو أيضًا رمز باق لهذا الدين وأنه ليس مخصوصًا بجيل الصحابة كما يفهم من قوله ﴿ **فِيكُمْ** ﴾ الوارد في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ** ﴾ فهو إن غاب عنَّا بجسده الشريف فهو باقٍ فينا بسنته الشريفة، وإن غاب عنَّا بشخصه الكريم فهو موجود معنا بهديه وشرعه الحنيف.

فإن كان في ظاهر الأمر أن اللَّه قد عاب على الأعراب ما فعلوه من تعدِّيهم على حرمات الدين والمرموز لها بحجراته الشريفة، إلا أن هذا العتاب لا يقف عند هذا الحد بل ينسحب أيضًا على كل من خالف سنة الرسول ﷺ التي تمثل وتجسد تعاليم هذا الدين، كما أنه يسري أيضًا على من لم يلتزم بأحكام شرعه الحنيف، فالعتاب بهذه الصورة مستمر وموصول إلى قيام الساعة، مما يبين لنا ما يحظى به رسولنا ﷺ عند ربه من رفعة القدر والوجاهة، وذلك حتى نتشبث بسنته ونعطيها ما يليق بها من علو الشأن والمكانة.

فعدم السماع لقوله ﷺ أو التباطؤ في إجابة أمره واقتفاء أثره توردنا موارد التهلكة والبوار وتجعلنا نندم ولات حين مناص ونتحسر بعد فوات الأوان. وهذا المعنى الذي أشرنا إليه واستنبطناه من قوله عز وجل في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ...﴾

لهو نفس المعنى الذي أشارت إليه أيضًا الآية الثانية من سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ...﴾ فقد قلنا عند تفسيرها: إن النهي ليس منصبًّا فقط على مجرد رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ ولكن القصد من النهي ألا يخالفوه بقول أو فعل فيما أمر به أو نهى عنه فإذا تكلم فليسمعوا قوله وليتبعوا أمره وقلنا لماذا قال الله: ﴿فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ولم يقل: (فوق صوت الرسول) كما استعمل كلمة الرسول في الآية الأولى من السورة دون كلمة «النبي» ولماذا أيضًا قال: ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ بصيغة الجمع ولم يقل (صوتكم) مع أن المصادر يمكن أن تأتي بصيغة المفرد، ولولا خشية التكرار والإملال لأعدت ما كتبت هناك ولكن ارجع إن شئت إلى تفسير الآية الثانية واقرأ ما ورد تحت عنوان: (إنك أنت الأعلى) فإنه كلام نفيس جدًّا ولله الحمد والمنة.

فالآيات الثانية والسادسة كما بينا صياغة كل منهما تكاد تكون متشابهة ولا سيما قوله في الآية الثانية: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ وقوله في الآية السادسة: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ وإن اختلفت البداية في الآيتين إذ أنه في الآية الثانية ورد فيها النهي: (لا ترفعوا ـ ولا تجهروا) وفي الآية السادسة ورد فيها الأمر: (فتبينوا) ولكن كما قلنا إن قوله: (فتبينوا) وإن جاء في صيغة الأمر إلا أن معناه النهي كأنه قال: (فلا تتعجلوا).

* * *

براعة الاستهلال

وكذلك بالنسبة لباقي صيغ الأمر في السورة الكريمة فقد جاءت في معنى النهي كقوله في الآية الأولى وفي غيرها: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ أي: اتقوا غضبه وخافوا عذابه وذلك باتقاء ما نهاكم عنه وفعل ما أمركم به وكذلك قوله: ﴿ **اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ** ﴾ [الحجرات: ١٢] أي: لا تسيئوا الظن بإخوانكم المؤمنين واتركوا تلك الأوهام والهواجس التي لا أصل لها في الحقيقة أو الواقع، وكذلك عطف عليها صيغ النهي التي جاءت بعدها في نفس الآية وهي ﴿ **وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا** ﴾ [الحجرات: ١٢].

وهكذا فإن صيغ الأمر الواردة في السورة لم يأت أكثرها لغرض الطلب والأمر بل جاءت لخدمة صيغ النهي الواردة في السورة ولتقوية جانب الترك والاتقاء والذي هو المقصد الأساسي للسورة الكريمة، فالمراوحة بين صيغ الأمر وصيغ النهي في السورة إنما هو من باب التنوع والتفنن في القول ولكسر الرتابة، ولكن يبقى الخيط الذي يربط بينهما جميعًا وهو النهي والحظر.

وارجع في ذلك أيضًا إلى ما ذكرناه بالتفصيل عند التعقيب على الآيتين اللتين سبقتا آيتنا هذه الكريمة فالآية الثانية والآية السادسة كأنهما يخرجان من مشكاة واحدة، فكل منهما تتكلم عن الأدب اللائق في حقه ﷺ وتحذر من سوء المآل والمصير لمن يجترئ على حرمات الرسول ﷺ ويتعدى على حجراته الشريفة والتي هي رمز لهذا الدين، فقوله في الآية الثانية: ﴿ **أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ** ﴾ مع قوله في الآية السادسة: ﴿ **أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ** ﴾ يبين ذلك، فكلاهما عاقبته وخيمة وأضراره جسيمة، وحبوط العمل والشعور بعد ذلك بالحسرة والندم يجعل عمل الإنسان هباءً منثوراً.

ولعلنا نلاحظ أيضًا أن السورة بدئت بالنهي في أول آية منها: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ**

آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١] وفي الآية الثانية وردت صيغة النهي فيها مرتين: ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢] وهذا ليس عبثًا ولم يأت عفوًا بل هو أمر مقصود وله دلالته، و هكذا تتتابع صيغ النهي في بداية السورة حتى إذا استقر معنى الترك والحظر والاتقاء في النفوس وعرفنا الهدف المقصود من السورة وهو كما رأينا من خلال براعة الاستهلال التي بدئت بها السورة فبعد ذلك لا بأس أن نأتي من باب التنوع، والتفنن بصيغ الأمر في معنى النهي كقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ و﴿وَاتَّقُوا﴾ و﴿اجْتَنِبُوا﴾ فقد تحدد مسار السورة واتضحت وجهتها بعد أن صيغت بصيغة النهي والاتقاء وصيغت في صيغ الترك والاجتناب وانظر في ذلك إلى مقدمة هذا الكتاب.

فخلاصة القول: أن هذه الآية السادسة قد جاءت في موضعها المناسب، ومع غيرها من الآيات مراعاة للأشباه والنظائر، فلاينبغي إذن تأخيرها، أو تقديم نداءات أخرى قبلها وإلا فصلنا بينها وبين مثيلاتها من الآيات التي سبقتها أو التي تلتها، والتي يمثلن معًا كيانًا متراصًّا لا ترى فيه عوجًا ولا أمتًا.

ويكفي هذه الآية تيهًا وفخرًا وحسبها عزًّا وفضلاً أنها تتكلم عن رسول الله ﷺ وما ينبغي من التأدب في حضرته واتباع شريعته والتمسك بسنته، فالآية التي تتكلم عن هذا ينبغي ألا يقدم عليها شيء بل ينبغي أن تكون هي المقدَّمة وأن تحتل مكان الصدارة وأن تتبوأ تلك المنزلة عن استحقاق وجدارة، فهي تتكلم عن ساكن المدينة وصاحب الحجرات الشريفة التي لها في نفوس المؤمنين حرمة ومهابة ولها في القلوب إجلال وقداسة فلا شيء يساميها في القدر والنفاسة ولا شيء يدانيها في الشرف والكرامة بل وستظل بإذن ربها حصنًا للإيمان ورمزًا للإسلام إلى قيام الساعة نسأله عز وجل الحفظ والرعاية والتوفيق والهداية والسلامة والسعادة، فهو نعم المولى والنصير وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

تفسير قوله عز وجل: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

الأمر عزيمة لا رخصة

في هذه الآية الكريمة إشارة إلى ما حدث في صلح الحديبية الذي عقده الرسول ﷺ مع قريش واعترض الصحابة ـ كما ذكرنا من قبل ـ على بنود هذا الصلح؛ لأنهم رأوا أن شروطه مجحفة في حق المسلمين، وعبر عمر بن الخطاب عن رأي الصحابة بقوله: (ألسنا على الحق وهم على الباطل، ألست برسول الله، فلم نرضى في ديننا الدنية؟) فهم لم يفهموا الحكمة من هذا الصلح وكانوا يريدون دخول مكة ولو حدث قتال بينهم وبين قريش.

وكان رسول الله ﷺ يتصرف بوحي من ربه عز وجل وكان بعيد النظر وقد أثبتت الأحداث بعد ذلك أنه كان على حق ولذلك كان رده على عمر: «**إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري**» وقد جاءت آيات سورة الفتح التي نزلت في هذا الصلح تقر الرسول ﷺ على ما فعل.

وقد بلغ ذروة الاعتراض من الصحابة حينما أمرهم الرسول ﷺ بعد انقضاء الصلح بأن يتحللوا من إحرامهم فلم يفعلوا ودخل الرسول ﷺ مهمومًا على زوجه أم سلمة وأخبرها بما حدث فاقترحت عليه أن يخرج ولا يكلم أحدًا منهم وليذبح هديه وليأمر حلاقه بأن يحلق له وهنا لا يملك الصحابة إلا أن يفعلوا مثله.

وهذا ما حدث بالفعل فقد فاء الصحابة إلى رشدهم وراجعوا أنفسهم وعلموا أن

الأمر عزيمة وجد، وعصمهم الله من الزلل وألزمهم كلمة التقوىٰ فتمسكوا بها بعد أن امتحن الله قلوبهم لها، وهو ما أشار الله إليه في آيتنا هذه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

وهكذا عاد الأمر إلىٰ موضوع الالتزام والطاعة التي بدأت به السورة في قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١] أي: لا تتجاوزوا حدودكم، والتزموا الأدب مع نبيكم ﷺ ولذلك قال هنا مشيراً إلىٰ ذلك: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾

* * *

النعمة الكبرى

وليس المقصود بالأمر بالعلم في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ هو ظاهر الخبر لأن ذلك معلوم بالمشاهدة والعيان ولكن المقصود أن يعلموا حقيقة هذا الأمر وتبعاته، وأن وجوده بينهم يقتضي طاعته واتباعه والتسليم لأمره وعدم الاعتراض عليه فهو رسول الله عز وجل الذي يأتيه الوحي من فوق سبع سموات، والذي لاينطق عن الهوىٰ والذي لا يخلو فعله عن الحكمة وإن خفي عليهم وجهها. فيجب عليهم أن يتهموا أنفسهم وينظروا إلىٰ قصور رأيهم وألا يحاولوا الضغط عليه لفرض رأيهم أو الانتصار لوجهة نظرهم. وبعبارة أخرىٰ ينبغي أن يتلقوا عنه وألا يقترحوا عليه أو يتقدموا بين يديه.

ولذلك قدم الخبر (فيكم) علىٰ المبتدأ (اسم أن) فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ ولم يقل: (واعلموا أن رسول الله فيكم) وذلك للإشارة إلىٰ اختصاصهم هم